

سورة التحريم (الآيتان: 9 - 10)

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف قصتي امرأة نوح وامرأة لوط وما فيهما من عبر .
- 2- أن أدرك أن نجاة الإنسان رهينة بأعماله الصالحة في الدنيا .
- 3- أن أعتبر بقصتي المرأتين لأواظب على الإيمان والعمل الصالح .

تمهيد

بعد أن أمر سبحانه المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله عز وجل، أمر رسوله بمجاهدة الكفار والمنافقين الذين يكيدون للإسلام ويتآمرون على المسلمين، والغلبة عليهم حتى يرجعوا إلى رشدهم، ضارباً المثل لهم بكفر امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام وخيانتتهما.

فما هو حال امرأة نوح وامرأة لوط؟ وكيف أعتبر بقصتهما في حياتي؟

الآيات

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحٍ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْدَنَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ لَهُمَا النَّارُ مَعَ الدَّٰخِلِيْنَ ۝١٠﴾ [سورة التحريم: 9-10].

الشرح:

وَاعْلُكْ عَلَيْهِمْ: وعاملهم بالغلظة والقوة.

وَمَا يُؤْلَعُ: مقرهم ومستقرهم في الآخرة.

الْمَصِيرُ: المرجع.

فَقَتَّ عَبْدَيْهِ: في عصمتها.

فَخَانَتَهُمَا: فوقعت منهما الخيانة لهما في الدين لا في الفراش.

استخلاص مضامين الآيات:

1- بم أمر الله نبيه في الآيتين؟

2- بم ضرب الله المثل للذين كفروا؟

التفسير

اشتملت هاتان الآيتان على ما يأتي:

أولاً: توجيهات قرآنية في شأن الكفار والمنافقين

بعد أن أخبر القرآن الكريم بما سيحل بالكفار في الآخرة في قوله: ﴿يَأْتِيَهُمُ الْيَوْمَ كَبْرُؤٌ كَبِيرٌ فَسَوْفَ يَكُونُ لِأُولَئِكَ نَارُ جَهَنَّمَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ نَارٍ كَانَتْ لِلْكَافِرِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [التحریم: 7]، أمر رسوله ﷺ بكيفية معاملتهم في الدنيا إذا هم تمادوا في إذايته وإذاية أصحابه، حيث قال تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ النَّارُ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُوئُنْفُسِهِمْ فَطَبَعَ لَهُمْ ظُهُورَهُمْ﴾ [التحریم: 7]. أي: يا أيها النبي جاهد أنت ومن معك من المؤمنين الكفار والمنافقين، وذلك بدعوتهم إلى الإسلام، ومواجهة المحاربين منهم بالسيف إذا اقتضت مصلحة الأمة ذلك، ووجدت الدواعي الشرعية له، وعن قتادة: مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم. وعن مجاهد: بالوعيد. وقيل: بإفشاء أسرارهم. ﴿وَاعْلُكْ عَلَيْهِمْ﴾

أي: وعاملهم بالغلظة والقوة حتى يهابوك أنت ومن معك، ولا يستخفون بك وبالمؤمنين، وتكونوا في مأمن من أذاهم وخيانتهم. قال الطاهر بن عاشور: «وإنما أمر رسوله ﷺ بذلك، لأن الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي ﷺ فاتخذوهم عيوناً لهم وأيدي يدسون بها الأذى للنبي ﷺ وللمؤمنين». [التحرير والتنوير: 28/372].

وهذه الآية ليست على عمومها، فلا يمكن مقاتلة من ليس على دين الإسلام إذا لم يتآمروا على المسلمين، ويشكلوا خطراً على بلاد الإسلام، ولم يقاتلوا المسلمين، ومع كل ذلك فإن الجهاد يكون بأمر ولي المسلمين وتحت مسؤوليته، وقد كان النبي ﷺ يتعايش مع الكفار والمشركين بمكة، ومع غير المسلمين عموماً وكذا مع المنافقين بالمدينة، وأمر الصحابة بالهجرة إلى بلاد النصارى بالحبشة، ويدل على مشروعية التعايش بين المسلمين وغيرهم مجموعة من النصوص والأدلة الشرعية، منها ما تضمنته صحيفة المدينة، وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهِيكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِصُوا إِلَيْهِمْ إِنَّا اللَّهُ نَحِبُّ الْمَفْسِيحِينَ إِنَّمَا يَنْهِيكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَهَلَاقُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَؤَلَّيْكَ فُحْمُ الْخَالِمُونَ﴾ [المتحنة: 8-9].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْعَمُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: ومقر الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة جهنم، وبئس المرجع الذين يصيرون إليه.

ثانياً: قصة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام

بعد أن بين الله عز وجل بعضاً من أحكام الكفار والمنافقين، ضرب مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط حيث قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: ضرب الله مثلاً يبين به حال أمثلة من الكافرين

﴿إِمْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ﴾ قيل اسم امرأة نوح والهة، واسم امرأة لوط والعة، وهذا يفتر إلى صحة نقل ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدٍ يَرْمِي عِبَادَهُ نَاصِلِحَتَيْنِ﴾ أي: كانتا تحت عصمة نبيين كريمين، وكان الأجدر بهما أن ينتفعا ويهتديا بهديهما.

﴿بَخَاتِلَتُمَا﴾ قال ابن عباس: خيانة امرأة نوح في أنها كانت تقول: إنه مجنون، وخيانة امرأة لوط بأنها كانت تخبر قومه بأضيافه إذا قدموا عليه، وكانتا مع ذلك كافرتين، وقيل: خانتا بالزنا، وأنكر ابن عباس ذلك، وقال: ما زنت امرأة نبي قط تنزيها من الله لهم عن هذا النقص.

وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل كأنه يقول: لا يغني أحد عن أحد ولو كان أقرب الناس إليه كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما.

وقيل: هذا مثال لأزواج النبي ﷺ فيما ذكر في أول السورة، وهذا باطل لأن الله إنما ضربه للذين كفروا.

قال البيضاوي: «مَثَلُ اللَّهِ تَعَالَى حَالَهُمْ فِي أَنَّهُمْ يَعَاقِبُونَ بِكُفْرِهِمْ، وَلَا يَحَابُونَ بِمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّسَبَةِ بِحَالِهِمَا». [تفسير البيضاوي: 226/5]. يستفاد من هاتين الآيتين ما يأتي:

- أنه يجب على الدولة المسلمة حماية أمنها واستقرارها، وحفظ الدين وتوفير ظروف الدعوة إليه تحت رعاية ولي أمرها ووفق أمره وتوجيهاته.
- أن الإنسان رهين بأفعاله، ولا ينفعه غيره مهما بلغت مكانته عند الله عز وجل، لذلك على الإنسان أن يقبل على الله ويملاً قلبه بالإيمان والتقوى.
- أن مجرد المخالطة أو النسب أو الزوجية لا ينفع في النجاة عند الله، إذا مات صاحبه على الكفر ولم يتب.

• أن الهداية إلى الإيمان هي بيد الله تعالى ، لا تنفع فيها قرابة المهتدين ولا خلطتهم .

● التقويم

1- متى يشرع الجهاد بالقوة؟

2- كيف توفق بين الآية موضوع الدرس والآيات التي تدعو إلى التعايش مع الكفار والمشركين؟

3- ما الغاية من ضرب المثل بقصتي امرأة نوح وامرأة لوط؟

● الاستثمار

أما الجهاد الشرعي فأنواع: أهمها جهاد النفس بتكوينها وتهذيبها وتركيتها وتأهيلها لتحمل المسؤولية. ويليه الجهاد بالفكر، ويكون بترويض العقل وصقله واستخدامه فيما يفيد البشرية، والجهاد بالقلم، ويكون بتأليف الكتب النافعة وتحرير المقالات المنورة للفكر، ورد الشبه والتهم المصلحة زورا بالإسلام والمسلمين. والجهاد بالمال ويكون بالإنفاق بسخاء في أبواب الخير، والإسهام في التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وأما الجهاد بالسلاح فإنه لا يلتجئ إليه المسلمون إلا في حالة الضرورة القصوى عندما يعتدي عليهم أعداؤهم، وتفشل كل الوسائل السلمية. فالجهاد في هذه الحالة شبيه بالكَيِّ الذي هو آخر الدواء. ومع ذلك، فإن إعلان الجهاد في هذه الحالة لا يكون إلا بأمر الإمام الأعظم، إذ هو من اختصاصه وحده. إذ أعطاه الإسلام وحده الحق في إعلانه والدعوة إليه وتنظيمه، ولم يبح لأي فرد ولا جماعة أن تقتحمه من تلقاء نفسها. وقد أَلَحَّ علماء الإسلام قديما وحديثا على إبراز هذا الاختصاص، صيانة لتمام الأمة، وحماية لها من أن ينفرط عقدُها، فتتنازع وتفشل وتذهب ريحها.

[فتوى صادرة عن الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى بالمغرب بتاريخ: 2 صفر 1437، / 14 نونبر 2015]

أتأمل مضمون الفتوى وأجيب عن الآتي:

1- أبرز أنواع الجهاد المذكورة في النص .

2- لماذا كان إعلان الجهاد اختصاصا حصريا للإمام الأعظم بعد توفر موجباته؟

● الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيتين: 11-12 من سورة التحريم وأجيب عن الآتي مستعينا بتوجيهات الأستاذ(ة):

1- أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: **أَحْصَيْتُ - بَرَّجْنَا - بَنَيْتُ** - **مِنْ زُجْجَتَا - مِنَ الْفَلَيْتِ** .

2- أبحث في قصتي امرأة فرعون ومريم ابنة عمران والعبر المستفادة من القصتين .